بسم الله الرحمن الرحيم

منهج طه حسين في دراسة أبي العلاء

تجديد ذكرى أبي العلاء

مع أبي العلاء في سجنه

رعد عبداللطيف صالح(*)

مقدمة

عاش أبو العلاء المعري (٣٦٣هـ- ٤٤٩هـ) في عصر اضطربت فيه الأمور السياسية والاجتماعية، وتنوعت فيه الثقافات، وكثرت فيه الحركات الفكرية، فكانت للمعري فلسفته وآراؤه فيما حوله من الأمور، وتبعا لهذه الآراء، فقد نظر الناس إليه نظرتين متباينتين: فقد اتهمته إحداهما في دينه، ورأت فيه الخارج على المألوف، والأخرى نظرت إليه نظرة مخالفة. ولعل السبب في تباين النظرتين يعود إلى أن كل فئة نظرت إليه من زاوية مختلفة عن الأخرى وغياب منهج واضح يقود إلى آثار الرجل ومن ثم الحكم له أو عليه.

وتعرض الدكتور طه حسين لدراسته مدفوعاً بنظرتين:

(*) وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الأولى: عامة، وهي التباين في النظرة إلى أبى العلاء.

والأخرى: خاصة، وهي التشابه بين الدارس والمدروس في آفة العمى.

ولم يشأ الدكتور طه حسين أن يخوض هذه التجربة إلا وهو واقف على أرضية صلبة تقوم على منهج واضح بين المعالم، تحكمه قاعدة معروفة وخطة مرسومة، متأثرة فيها بعلماء أوربا. وهذا المنهج الأوروبي هو المنهج التاريخي بثالوثه الواضح (الزمان، المكان، الجنس)، وقد طبقه في دراسته، فتعرض إلى زمان أبى العلاء وما حدث فيه من أحداث والى بيئته بكل معطياتها، والى اختلاط الأجناس ومدى تأثرها وتأثيرها. وليس معنى هذا ان الدكتور طه حسين قد اقتصر في دراسته على هذا المنهج فقط، بل استعان بكل علم يمكن ان يساعد في توضيح الأمور وإزالة الغموض، ولكن الوجه الغالب والبارز كان للمنهج التاريخي. ولا يوجد منهج كامل تام، ولكل منهج إيجابياته وسلبياته.

وسأحاول في هذا البحث أن اعرض للمنهج الذي اتبعه الدكتور طه حسين في دراسته معتذرا عن أي تقصير ورد فيه.

والكمال لله وحده

لماذا أبو العلاء ؟

لا يختار البحث شخصية لدراستها إلا ولها في نفسه وتفكيره ارتباطات وإعجاب من نوع خاص، فإما أن تكون هذه المنطلقات نابعة من شخصية الباحث، أو تكون منطلقة من الشخصية موضوع الدراسة، فتأسر عقل الباحث، وتجبره على دراستها، فلا يستطيع لها دفعاً.

والدكتور طه حسين قد كره شخصية أبي العلاء في البداية معزيا ذلك إلى المنهج القديم (كره المنهج القديم إلى أبا العلاء)[1]، ولعل ذلك يعود إلى النظرة القاصرة في فهم هذه الشخصية. ثم عاد وأحبه (وأزال المنهج الجديد من نفسي هذا الكره)[2]، فكأني بالدكتور طه حسين يريد أحكاما موضوعية بعيدة عن الأحكام التأثرية، يريد أن يقف (موقف الرجل الحر، لا يستهويه حب، ولا يصرفه بغض، وإنما المجيد والمسيء عنده سواء في الخضوع لقوانين البحث)[3]. ومن هذا نرى ان الذي يريد أحكاما موضوعية لابد له ان يلتزم بمنهج مقيد بمعايير واضحة، ومقاييس ثابتة.

وعلى الرغم من هذا، فان الدكتور طه حسين ذكر عدة أسباب دفعت به إلى اختيار شخصية أبي العلاء للدراسة، نذكر منها:

---

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص١٤.

(٢) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص١٤.

(٣) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص١٤.

١. اختلاف الباحثين في النظرة إلى أبى العلاء، وقد جر هذا الاختلاف في الآراء إلى إصدار أحكام متباينة عليه مرة بالكفر، وأخرى بالإسلام، (وقد سمعت الناس يتحدثون عن اللزوميات. فلا يتفقون فيها على رأي، وسمعتهم يصفون أبا العلاء بالإسلام مرة وبالكفر مرة)[٤].

٢. اعتناء الغربيين به عناية عظيمة، فقد درسوا فلسفته، وترجموا رسائله وأشعاره ولعل الدكتور طه حسين يلمح هنا إلى تقصير العرب في جانب أبى العلاء.

٣. التشابه بين طه حسين و أبى العلاء في العلة الواحدة، أو ما يسميها (بالآفة المحتومة وهي العمى منذ الصغر، فكانت من المؤثرات الفاعلة في شخصية وفكر كل منهما)[٥].

٤. التشابه بين أبى العلاء وبين المصور الفرنسي (ديجاس)، فقد كتب بولفاليري عن هذا المصور الفرنسي، فعرّف به تعريفاً كبيراً. وما أن اطلع الدكتور طه حسين على ما كتبه فاليري حتى كانت صورة أبى العلاء ترتسم في مخيلته (والغريب الذي لم اكن أتوقعه ولا افترضه إن كثيراً من صفات هذا المصور الفرنسي ... تشبه ما ألفت وأحببت من صفات أبى العلاء)[٦]، ويأخذ طه حسين في بيان اوجه التشابه بين الاثنين: شدة كل منهما على نفسه، ارتياب في أحكام الناس، زهدهما في الشهرة وبعد الصيت، والانصراف عن اللذة، والابتعاد عن الحمد الكاذب والثناء

---

(٤) المصدر نفسه، ص١٥.

(٥) المصدر نفسه، ص١٥.

(٦) مع أبى العلاء في سجنه، ص١١.

الرخيص، إلا أنّ الأول كان رساماً والآخر شاعراً[٧].

٥. الشك الذي أثاره ماسينون في بيان الصلة الدينية بين أبى العلاء والإسماعيلية، فقد كانت (صلة في المذهب واشتراكاً في الرأي، وكنت قد أكبرت ذلك وأنكرته)[٨].

٦. الانشغال الفكري العميق، والحوار القوي الذي كان يدور في نفس طه حسين مع أبى العلاء حول موضوع الرضا والسخط عن الحياة والضيق بها (وكنت احدث أبا العلاء بان تشاؤمه لا مصدر له في حقيقة الأمر إلا العجز عن ذوق الحياة، والقصور عن الشعور بما يمكن ان يكون فيها من جمال وبهجة، ومن نعيم ولذة)[٩].

طه حسين وإشكالية المنهج

عاش طه حسين في ظل ثقافتين مختلفتين بشكل كبير، فقد كانت ثقافته الأولى أزهرية الطابع، تقليدية المنهج، والأخرى غربية تمثلها الجامعة المصرية وأساتذتها الغربيون الذين استقدمتهم الجامعة للتدريس فيها وهي تمثل المنهج الحديث، فنشب صراع عنيف في نفسه التي كان يعجب بها حينما يستمع للمستشرقين بالجامعة المصرية، ومحاولة منه لتجاوز الكتابات السائدة التي كان ينتقدها)[١٠].

---

(٧) مع أبى العلاء في سجنه، ص١١.

(٨) مع أبى العلاء في سجنه، ص١٢.

(٩) المصدر نفسه، ص١٣

(١٠) احمد بو حسن، الخطاب النقدي عند طه حسين، ص٩-١٠.

وكانت البداية في كتاب (تجديد ذكرى أبي العلاء) الذي نال به درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية عام ١٩١٤ وفي مقدمة الكتاب يوضح الفروق بين المنهجين، وطريقة تعامله مع كل واحد منهما.

أ. المنهج القديم (سيد المرصفي)

كان طه حسين من المواظبين على حضور دروس أستاذه الشيخ سيد بن علي المرصفي الذي كان يلقي دروسه على طلابه في الأزهر الشريف، ولم ينقطع الطالب عن حضورها طيلة أربع سنوات، وهو يوضح منهج أستاذه فيقول: (ايثار للبدوي الجزل على الحضري السهل، وكلف بمناحي الاعراب في فنون القول، ونبو عن تكلف المولدين لأنواع البديع وانتحالهم لألوان الفلسفة والمنطق، وبغض شديد لحكم الضرورة في الشعر، وللفظ السهل المهلهل يقع بين الألفاظ الجزلة الفخمة، إلى غير ذلك مما هو إلى مذهب القدماء من أئمة اللغة ورواة الشعر أدنى منه لمذهب المحدثين من الأدباء والنقاد)(١١).

فقد كان منهج المرصفي يقوم على ايثار للعبارات الجزلة وزيادة محبة وشغف بطريقة العرب، وهي تساعد الدارس وتعينه على فهم النصوص الأدبية، ثم هو لا يسير سير القدماء في الدرس، ويكون جل اهتمامه بالنحو والعروض والصرف ومسائل الإعراب، بل ينقد مناهج القدماء من الشراح (ومبغض لهذه المسائل لا يعنيه إلا اللغة والنقد فكان كثيرا ما يسخر لنا من أبي العلاء

(١١) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص٩-١٠.

وتلميذه – الخطيب التبريزي الذي كان ينقل شرحه عن أبى العلاء – ويهزأ بما تكلفاه من العلم)[١٢].

ولكن الدكتور طه حسين يرى في هذا المنهج قصوراً، وهو انه لا يفي بالحاجة التي يريدها دارس الأدب، و إنما هي مرحلة أولى تساعد على (تقوية الطالب في النقد وحسن الفهم لآثار العرب)[١٣] ويعترف بأنه لم يبقَ في عقله من آثار منهج أستاذه (إلا دقة النقد اللفظي والحرص على إيثار الكلام إذا امتاز بمتانة اللفظ ورصانة الأسلوب)[١٤] وهذا المنهج بأكثر معاييره رأي فيه انه (لا يكفي لإجادة البحث عن الأدب وتاريخها)[١٥].

ويعلل الدكتور طه حسين سبب الإعراض عن الأدب العربي بأنه ليس عيباً في الأدب نفسه بل (لأنه مجهول لا يحسنه أصحابه ولا يتعمقونه، وكل ما يحول بين الأدب العربي وبين الحياة والخصب والنفع ان مناهج البحث عنه والاستقصاء له سيئة رديئة لم تنظم بعد)[١٦].

ومع ما ذكره طه حسين من قصور المنهج القديم، الا انه كان يدرك ان المنهج لا يمكن ان يكون شراً كله، فلابد ان يكون له بعض فائدة (مذهب الأستاذ المرصفي نافع النفع كله إذا أريد تكوين ملكة في الكتابة وتأليف الكلام)[١٧]، وقياساً

(١٢) تجديد ذكرى أبى العلاء، ص١٠-١١.

(١٣) المصدر نفسه، ص١٢.

(١٤) المصدر نفسه، ص١٢.

(١٥) المصدر نفسه، ص١٢.

(١٦) مقدمة فجر الإسلام، ط١، ص(و).

(١٧) تجديد ذكرى أبى العلاء، ص١٢.

إلى الثقافة السائدة في ذلك الزمان، فان المرصفي (أصح من عرفت بمصر فقهاً في اللغة، وأسلمهم ذوقاً في النقد، واصدقهم رأياً في الأدب)[١٨].

ب. المنهج الحديث (الجامعة المصرية)

مع إنشاء قسم للأدب في الجامعة المصرية، فقد دعت الجامعة مجموعة من الأساتذة المستشرقين ينتمون إلى جنسيات مختلفة، إيطالية وفرنسية وألمانية لإلقاء محاضرات فيها. والتحق طه حسين. بهذا القسم، فرأى فيه أسلوبا جديداً للنقد، ومناهج بحث لم يعهدها من قبل (فإذا ألوان من الدروس لم اعرفها من قبل، وإذا فنون من النقد لم يكن لي بها عهد)[١٩].

وعلى الدارس ان لا يكتفي بعلوم اللغة وآدابها فقط، بل لابد له من التسلح بعلوم أخرى مساندة ومساعدة في استجلاء الغموض فيما يعرض له الباحث من الدراسات الأدبية فمن فلسفة إلى أديان إلى تاريخ ولغات (وإذا الباحث عن تاريخ الآداب لابد له من ان يدرس علم النفس للأفراد والجماعات إذا أراد أن يتقن الفهم لما ترك الكاتب أو الشاعر من الآثار)[٢٠].

ويرى طه حسين ان على الباحث ان ينفتح عقليا وفكريا على الثقافات الأجنبية إذا أراد أن يكون باحثا حقا، وإذا أراد أن يكون مؤرخا للآداب، إما أن يتقوقع داخل لغته وثقافته فقط فهذا مالا سبيل إليه، وكأني به يشترط شروطا ويضع صفات للباحث الجيد، فنراه يقول (إذ لابد له – أي الباحث والمؤرخ للأدب – من

(١٨) المصدر نفسه، ص٩.

(١٩) المصدر نفسه، ص١١.

(٢٠) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص١١.

درس الآداب الحديثة في أوربا، ودرس مناهج الفرنج، بل ما كتب الأساتذة الأوروبيون في لغاتهم المختلفة عما للعرب من أدب وفلسفة ومن حضارة ودين)[٢١]، وهذا أمر جدير بالاهتمام والإعجاب، إذ لا يكفي أن يكون الإنسان محباً ومقدّساً لثقافته، بل يجب عليه أن يعرف رأي الآخرين فيها، وكيف ينظرون إليها وما هي المعايير التي يقوّمون بها حضارته وثقافته، وبأي منظار ينظرون إليه ولكن هذا الانفتاح الثقافي على ثقافات الأمم الأخرى يجب أن لا ينسينا أنفسنا، ولا يصهرها في بوتقة الأجنبي فنصبح اتباعاً له لا أندادا.

ويوضح لنا الدكتور طه حسين متهج الجامعة المصرية وخصائصه فنراه يقول: (والمذهب الذي أحدثته الجامعة في درس الآداب العربية بمصر نافع النفع كله لاستخراج نوع من العلم لم يكن لنا به عهد مع شدة الحاجة إليه، وهو تاريخ الآداب تاريخاً يمكننا من فهم الأمة العربية خاصة والأمم الإسلامية عامة فهماً صحيحاً)[٢٢]. والمستشرقون من أساتذة الجامعة تناولوا التراث العربي بطريقة مغايرة للمنهج القديم (وكان أستاذ تاريخ الآداب يتخذ ما ترك العرب لنا من الشعر والنثر مرآة يتبين فيها حياة الأمة في دينها وعلمها وسياستها، وفي ذوقها الأدبي والفني، وفيما لها من حياة اجتماعية واقتصادية)[٢٣]. ورأى ان هذا المنهج في الدراسة يحقق فائدتين:

(يعلمنا مناهج البحث من جهة، ويمثل روح الأمة في أطواره المختلفة من جهة

---

(٢١) المصدر نفسه، ص١١

(٢٢) المصدر نفسه، ص١٢.

(٢٣) المصدر نفسه، ص١٣.

أخرى)[٢٤]. وأرى ان طه حسين يدرس التاريخ اكثر من دراسته للأدب نفسه، ويتخذ من الأدب وسيلة لفهم الأمة عربياً وإسلاميا ولعل هذا (هو ما يشغل بال طه حسين طوال حياته، وسيسعى جاهداً لإبراز هذا المنهج الجديد الذي راح يبشر به ويدعو له)[٢٥].

وتأثر طه حسين بغير واحد من المستشرقين، فقد كان (يلوذ بالديكارتيه في طرائق التثبت مثلما يلوذ بالمكتسبات المنهجية في إجراءات البحث التاريخي الحديث، ويتقبل بعض افكارتين عن الدرس الأدبي بعد ان يمزجها بأفكار أستاذه في الجامعة المصرية كارلونالينو ويتقبل بعض أفكار سانت بيف بعد أن يعقلها بأفكار أستاذه في باريس، جوستاف لانسون)[٢٦]. وعلى هذا فقد ترك المستشرقون بصماتهم الواضحة في نفسه وعقله (وكان لدروس المستشرقين بعامة وقع طيب واثر بالغ في نفس طه حسين ونفوس رفاق جيله)[٢٧] وانتقل هذا التأثير من النظرية إلى التطبيق، ويوضح لنا الدكتور يوسف بكار تأثير المستشرقين في فكر وعقل طه حسين التأثير الواسع الكبير من خلال ما طبقه في مؤلفاته ودراساته في الأدب العربي بعبارة مختصرة وافية وشافية حيث يقول (حتى إذا ما طفقنا نبحث عن تأثيرها في التلميذ الشاب آنذاك، ألفيناه واضحا جليا في عقله وفكره ومنهجه وطرائقه وتواليفه وبعض مناحي حياته ومذهبه)[٢٨].

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص١٣.

(٢٥) احمد بو حسن، الخطاب النقدي عند طه حسين، ص٥٠.

(٢٦) جابر عصفور، المرايا المتجاورة، ص٨.

(٢٧) يوسف بكار، أوراق نقدية جديدة عن طه حسين، ص١٣.

(٢٨) الصدر نفسه، ص٢٢.

وعلى هذا يكون طه حسين خلاصة تيارات ثقافية متباينة، التيار القديم الذي مثله المرصفي والتيار الحديث الذي مثلته الجامعة المصرية.

نظرة توفيقية

ومع شدة اهتمام الدكتور طه حسين بمذاهب الأوربيين في البحث، فانه يرى بعض الأوجه الإيجابية في المنهج القديم، ولكن الأوجه الإيجابية في المناهج الأوروبية اكثر فائدة واعظم أثرا، وكأني به ينظر إلى المنهجين نظرة توفيقية، مع تغليب للمناهج الأوروبية (ولست ازعم أنا لسنا في حاجة إلى درس الآداب على المنهج القديم، بل أقول أنا في حاجة إلى المنهجين معا)[٢٩].

ولا يطلق طه حسين هذا الرأي إطلاقا حرا، بل نراه يعلل سبب هذه النظرة التوفيقية فيقول (في حاجة إلى المنهج القديم لتقوى في أنفسنا ملكة الإنشاء وفهم الآراء العربية التليدة وفي حاجة إلى المنهج الحديث، لنحسن استنباط التاريخ الأدبي من هذه الآثار)[٣٠].

وعلى الرغم مما أبداه طه حسين من نقاط إيجابية نحو المنهج القديم، فانه ينساق بعقله وفكره مع المنهج الحديث، بل ويمحو الحديث القديم ولا يترك منه الا بقايا أطلال (فلم يبق من هذه الآثار الحسان التي تركها الأستاذ في تلك النفس الناشئة الادقة النقد اللفظي، والحرص على إيثار الكلام إذا امتاز بمتانة اللفظ

---

(٢٩) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص١٣.

(٣٠) المصدر نفسه، ص١٣.

ورصانة الأسلوب)[٣١]. وهذا الامتزاج بين المنهجين القديم والحديث انتج نوعا من الدراسات الأدبي التي تتجه إلى بعض الشخصيات، والتي تضع هذه الشخصيات موضعها في حياة المجتمع والناس والتاريخ والأحداث والثقافة والعلم، ثم تنفذ من ذلك إلى الشخصية نفسها في ضوء آثارها ونتاجها)[٣٢].

بين يدي المنهج التاريخي:

لعل من أهم الأسماء اللامعة التي تعود إليها أصول هذا المنهج هو الناقد والمؤرخ الفرنسي هيبوليت تين، وذلك من خلال المقدمة التي كتبها عن (تاريخ الأدب الإنجليزي) ويقوم هذا المنهج على محور مركزي هو ان الأعمال الأدبية نتيجة لثلاثة عناصر (البيئة والزمان والجنس)، (وبهذا يرى تين ان الأدب كغيره من الظواهر العلمية والاجتماعية خاضع لعوامل خارجية سببت تكوينه)[٣٣] فالمنهج إذن يوضح الصلة الوثيقة بين الأدب والتاريخ، فأدب أمة من الأمم تعبير عن حياتها في المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، فلابد والحال هذه ان يكون الأدب عاكسا ومصورا لها.

ويعني هذا المنهج بدراسة العوامل المؤثرة في الأدب، وتفسير الظواهر الأدبية اعتمادا على هذه العوامل، فلا نستطيع تفسير ظاهرة أدبية من خلال نصوصها بل من خلال العوامل التي أثرت فيها. وسنلقي الضوء على الثالوث الذي يرتكز عليه هذا المنهج.

---

(٣١) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص١٢.

(٣٢) شكري فيصل، (طه حسين بين المحافظة والتجديد) مقالة في كتاب ذكرى طه حسين، ص٣٤١.

(٣٣) محمد زغلول سلام، النقد الأدبي الحديث، ص٣٥١.

البيئـة:

هي المكان الذي يعيش فيه الأديب ويؤثر فيه، ومدى تعلق الأديب بهذه البيئة، فهناك تأثير متبادل بين البيئة والأديب. ومفهوم البيئة مفهوم واسع، فهو يشمل المناخ، فهناك أقاليم باردة وأخرى حارة، ومناطق جبلية وسهلية وساحلية، والبيئة تعني كذلك تأثير المجتمعات الأخرى، وعلى أساس هذه الاختلافات البيئية جعل تين التمايز بين الشعوب)[٣٤].

فالبيئة الجبلية مثلا تؤثر في نفسيات سكانها تأثيرات تختلف عن التأثيرات التي تؤثرها البيئات الساحلية أو الصحراوية أو الزراعية أو الصناعية، فكل بيئة تطبع سكانها بطابعها الخاص من شدة ولين ووضوح وغموض ... ويظن الدكتور محمد مندور أنه ربما كان عنصر البيئة الطبيعية اكثر جدوى وصدقا في محاولة تفسير اختلاف خصائص أدب أمة عن أدب أمة أخري)[٣٥].

الزمان:

وهو الركن الثاني من أركان عملية التفسير للظواهر الأدبية، وتظهر أهميته من خلال النظر إلى اختلاف الظواهر الأدبية باختلاف العصور التي أفرزتها (فآداب العصور القديمة التي ظهرت في ظل الديانات الوثنية والحضارات الزراعية تختلف عن آداب العصور الوسطى التي ظهرت في ظل الديانات

(٣٤) انظر جيرروم ستولنيتز، النقد الفني، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، ص٦٩٤.

(٣٥) الأدب وفنونه، ص١٤٠-١٤١.

السماوية وحكم أمراء الإقطاع وتفتت الأمم)[٣٦]. فالأحداث السياسية والاجتماعية تترك آثارها الواضحة في أدب الأديب، وتبين مدى تفاعل الأديب مع هذه الأحداث المحيطة به. فالأدب والحال هذه حصيلة كل اوجه نشاط البشر الذين يعيشون خلال هذه الفترة الزمنية أو تلك.

الجنس:

يدل هذا المفهوم على (الاستعدادات الفطرية الوراثية)[٣٧]، وقد تأثر النقاد التاريخيون بذكرهم عامل الجنس والتركيز على أهميته (بتطور العقل الإنساني الذي ذكره كونت، وبنظرية داروين في تطور أجناس الحيوان)[٣٨]. فالاستعداءات الوراثية الموجودة في جنس من الأجناس تختلف عنها في جنس آخر، وقد بالغ النقاد كثيراً عندما (جعلوا جنسا بشريا أرقى من الآخر، ووضعوا ما يتميز به كل عقل من عقول الأجناس)[٣٩].

وهذه العوامل الوراثية تطبع الجنس الموجودة فيه بسمات خاصة مثل الذكاء

---

(٣٦) المصدر نفسه، ص١٤٢.

(٣٧) جيروم ستولنيتز، النقد الفني، ترجمة د. فؤاد زكريا، ص٦٩٤.

(٣٨) نصرت عبدالرحمن، في النقد الحديث، ص ٤٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٤٠.

أو الغباء أو الشجاعة أو الجبن ... الخ، وبالتالي يوصف أدب جنس بالوضوح أو الغموض أو التفاؤل أو التشاؤم ... الخ ولكن ما يعيب هذا العنصر ان قضية الصفاء العرقي عند أمة من الأمم معدومة، فالتقاء الشعوب مع بعضها بعضا خلال مراحل التاريخ المختلفة يلغي أي ادعاء لمقولة الصفاء العرقي (وذلك بعدما ثبت علميا من انه لا سبيل إلى تقسيم الإنسانية إلى أجناس خالصة متميزة بخصائص متوارثة حتمية، بعدما عرف من الهجرات والغزوات والاختلاطات التي تمت عبر القرون)(٤٠).

وهذا يقودنا إلى الحتمية والجبرية التاريخية، التي ترى الأديب وادبه انعكاسا لهذه العناصر الثلاثة، فلا يكون أدب الأديب انعكاسا لتجربة ذاتية، بل مرآة لما يحيط به من العلل والظواهر.

ومع ما يقدمه هذا المنهج من كشف لأوجه النشاط الإنساني ضمن هذا الثالوث إلا انه ألغى الفرد، وتجاهل الصفات المميزة له، ولم ينظر إلى عناصر الجمال الأدبي في العمل ذاته.

فاستعمل الأدب كوثيقة من وثائق التاريخ فانصرف عن العمل الأدبي إلى دراسة الظواهر المحيطة به.

---

(٤٠) محمد مندور، الأدب وفنونه، ص ١٤٠.

طه حسين والمنهج التاريخي

المتأمل للكتابين موضوع الدراسة يجد سمات تغلب عليهما، وتؤلف منهج صاحبهما في الدراسة، وان كانت في (تجديد ذكرى أبي العلاء) اكثر صراحة من (مع أبي العلاء في سجنه) فالأول هو أول دراسة له عن أبى العلاء، والثاني جاء بعده بربع قرن، وانبثقت الخطة المنهجية عند طه حسين مما رآه من القصور في المنهج القديم، حيث رأى فيه منهجا تأثريا يقوم على الحب والكره، فكره ان يسير وراءه، واراد لعقله أن يتحرر من اسر القديم وان ينظر إلى الأمور نظرة مستقلة تحقق اكبر قدر من الموضوعية.

يبدأ الدكتور طه حسين بتقديم منهجه الجديد في (تجديد ذكرى أبى العلاء) محددا الهدف الذي يبغي الوصول إليه من دراسته هذه (ليس الغرض في هذا الكتاب ان نصف حياة أبي العلاء وحده وانما نريد أن ندرس حياة النفس الإسلامية في عصره، فلم يكن لحكيم المعرة ان ينفرد باظهار آثاره المادية أو المعنوية)[٤١] فطه حسين ينفي ان تكون آثار أبى العلاء ومؤلفاته وآراؤه نتيجة تجارب فردية ذاتية (وانما الرجل وماله من آثار وأطوار نتيجة لازمة، وثمرة ناضجة لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه، وتصوير نفسه من غير ان يكون له عليها سيطرة أو سلطان)[٤٢].

بهذا يمهد الدكتور طه حسين فيؤكد إن الأديب والأدب ظاهرتان اجتماعيتان

---

(٤١) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص ٢٠.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٠.

ليستا معزولتين عما حولهما، بل هما نتيجة لمجموعة من العلل والأسباب، تركت آثارها وبصماتها على الرجل واثاره. ويعمم هذه الفكرة على كل شيء، فالشيء الواحد هو علة ونتيجة في الوقت نفسه، فالعلة اصلها نتيجة، والنتيجة ستصبح علة، وهكذا دواليك، (وان ليس في هذا العالم شيء إلا وهو نتيجة من جهة، وعلة من جهة أخرى، نتيجة لعلة سبقته، ومقدمة لأثر يتلوه)[٤٣] فأبو العلاء ضمن هذه القواعد العامة وهذه المعايير (ثمرة من ثمرات عصره، قد عمل في إنضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية، والحال الاقتصادية، ولسنا نحتاج إلى ان نذكر اثر الدين فانه اظهر اثرا من أن نشير إليه)[٤٤].

ويسميها القوى الاجتماعية، وهي عبارة عن قيود تحد من حرية الإنسان، وتمنعه من ان يفكر بحرية ويتكلم بحرية (ما هذه القوى الاجتماعية التي تقوم دونه فتحد من حريته في العمل وتحد من حريته في القول، وتضطره إلى العجز المطلق عن الصلاح والإصلاح)[٤٥].

والحتمية التاريخية جزء أساسي كبير وهام من المنهج التاريخي، فالإنسان ظاهرة اجتماعية تعمل فيه العلل والأسباب، فلا حول له ولا قوة، ويذكر طه حسين صراحة بأنه يرى (الجبر في التاريخ، أي أن الحياة الاجتماعية إنما تأخذها أشكالها المختلفة وتنزل منازلها المتباينة بتأثير العلل والأسباب التي لا يملكها الإنسان ولا

---

(٤٣) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص ٢١.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٤٥) مع أبي العلاء في سجنه، ص ٣٨.

يستطيع لها دفعا ولا اكتسابا)[٤٦].

ولقد نتج عن الجبرية التاريخية فيما يتصل بالظاهرة الأدبية إنها أصبحت إنتاجا آليا صناعيا من تأثير العلل والأسباب المحيطة بالأديب (إنما الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية، والخطبة يجيدها الخطيب، والرسالة ينمقها الكاتب الأديب، كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء)[٤٧]. ونقف قليلا عند لفظة الكيمياء التي هي (علم يبحث فيه عن خواص العناصر المادية والقوانين التي تخضع لها في الظروف المختلفة، وبخاصة عند اتحاد بعضها ببعض (التركيب) أو تخليص بعضها من بعض (التحليل)[٤٨]. وعليه فان العمل الأدبي يحلل من حيث العوامل التي أثرت في تشكيله وإفرازه واخراجه إلى حيز الوجود، ولكنها تكون متفاعلة مع بعضها بعضا بشكل معقد، فيلاحظ هنا إغفال للدور الإنساني وإلغاء للفرد وذاته، وجعله آلة توجه كما يريدها المجتمع، وهي بذلك (ثمرة لتفاعل معقد لا يتسم بالثبات بين عناصر تتحول عما كانت عليه في البداية مما يعني أن الصلة بين الظواهر الثقافية وعللها ليست صلة مباشرة أو بسيطة، وانما هي صلة معقدة تقوم على دخول وسائط متعددة)[٤٩] فتأثير هذه الوسائط واضح بين الأثر في العمل الأدبي، وبناء على هذا، فإن طه حسين لا يرى أن يمدح الأديب أو يذم بحسن أو بقبح ما ينسب

(٤٦) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص ٢٤.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٤٨) المعجم الوسيط، ج٢: ص ٨١٤.

(٤٩) جابر عصفور، المزايا المتجاورة، ص ٧١.

إليه من الأعمال الأدبية لان منهجه التاريخي يمنعه من ذلك، وما السبب إلا (انا لا نؤمن بانفراد الأشخاص ولا استقلالهم بالأعمال)[٥٠]. بل ويعتبر الذين ينظرون إلى تجربة الأديب الذاتية سدجا حين (يرون أن الأثر الفني إنما هو نتيجة لما يكون من لقاء بين ذكاء بارع وموضوع من الموضوعات)[٥١].

وبقي المنهج التاريخي سمة كبيرة من سمات المذهب النقدي عند الدكتور طه حسين، يلح عليه باستمرار، فنجد في غير مؤلف من مؤلفاته ذكرا لهذا المنهج وتعصبا له (الأديب هو اصدق صورة للرجل المجبر الذي لا رأي له ولا إرادة ولا اختبار فيما ينتج من الآثار الأدبية الخالصة، هو أشبه شيء بالأداة التي توجه ولا تعرف كيف توجه، و أشبه شيء بالمرآة التي تتلقى الصور وهي لا تعرف كيف يأتيه ولا من أين يأتيه)[٥٢]. وفي مقدمة كتاب فجر الإسلام ينوه طه حسين بالمنهج فيقول: (كانت القاعدة التي اعتمدنا عليها في البحث ان الأدب العربي كغيره من الآداب بل كغيره من كل ما يتصل بالحياة الإنسانية... شيء لا ينبغي ان ينظر إليه على انه منقطع الصلة عما حوله، و إنما هو جزء من كل، وليس إلى معرفة الجزء سبيل إذا لم يعرف الكل، وإذا لم يعرف ما يحيط به من الأجزاء الأخرى على اقل تقدير)[٥٣].

ولو أردنا استقصاء ما قاله طه حسين في منهجه لبلغ شيئا كثيرا. فإلى أي مدى وفق طه حسين في تطبيق معايير المنهج، هذا ما سنراه في الصفحات القادمة.

---

(٥٠) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص ٢٥.

(٥١) مع أبي العلاء في سجنه، ص ٧.

(٥٢) حديث الأربعاء، ٣: ٢١٧.

(٥٣) مقدمة فجر الإسلام لأحمد أمين، ص(ح).

المنهج بين النظرية والتطبيق

يقوم المنهج التاريخي على الثالوث المعروف (البيئة والزمان والجنس) والنظر إلى الأديب وما يصدر عنه من أعمال أدبية كظاهرتين اجتماعيتين محكومتين بالثالوث ضمن جبرية وإلغاء لعنصر الاختيار الإنساني.

يقول طه حسين (وللزمان و للإقليم فيها تأثير عظيم، وللبيئة الاجتماعية تأثير اعظم، وللعادات والأخلاق الموروثة تأثير لا يكاد يقدر، والحوادث الطارئة تصرفها كما تريد وتصوغها كما تشتهي، فمن أين يأتي للإنسان حظه من الاختيار، إلا ان الاختيار وهم قد ملك الناس منذ كانوا وهم على الخضوع له مجبورون)[٥٤].

ويتضح لنا ثالوث المنهج في عملية الموازنة التي أجراها طه حسين بين بشار بن برد وأبى العلاء المعري، فهما متفقان في الجبر وآفة العمى والتشاؤم (ولكن تشاؤم أحدهما – بشار – انتهى به إلى الطهر والبر والنسك والتحرج)[٥٥].

ويعلل طه حسين هذين السلوكين المتعاكسين، فلا يجد أمامه إلا البيئة والجنس والزمان يتكئ عليها وفقا للجدول التالي،[٥٦] على سبيل التوضيح.

---

(٥٤) تجديد ذكرى أبى العلاء، ص٢٨٩.

(٥٥) مع أبى العلاء في سجنه، ص٦٦.

(٥٦) المصدر نفسه، ص٦٦.

بشار بن برد	أبو العلاء المعري
البيئة: (فقد عاش بشار في بيئة زندقة ومجون).	البيئة: (وعاش أبو العلاء المعري في بيئة تحفظ واحتشام).
الجنس: (فقد انحدر بشار من أسرة فارسية خضعت للرق).	الجنس: (انحدر أبو العلاء من أسرة عربية لم تعرف إلا العزة والحرية).
الزمان: (عاش بشار في عصر ثورة لم تتناول السياسة وحدها بل تناولت الأخلاق والدين ونظام الاجتماع)	الزمان: (عاش أبو العلاء في عصر سهما تفسد فيه الحياة فقد كان فيه استقرار ما للعرف الخلقي والاجتماعي).

وبعد هذا الجمع للعناصر الثلاثة نبدأ بذكر كل عنصر وحده، وبيان مدى نجاح طه حسين في المواءمة بين النظرية والتطبيق.

يحدثنا الدكتور طه حسين عن البيئة مفصلا بعض عناصرها، ذاكرا تأثيراتها على الإنسان ونفسه، فهي مؤثرة والإنسان متأثر، فاعتدال الجو وصفاؤه، ورقة الماء وعذوبته، وخصب الأرض وجمال الربى، ونقاء الشمس وبهاؤها، كل هذه علل مادية تشترك مع غيرها في تكوين الرجل وتنشئ نفسه(٥٧).

ويرى جابر عصفور(٥٨) ان البيئة قد تعني (العوامل الجغرافية، أو الأدوات الإنتاجية أو علاقات الإنتاج، أو النظم السياسية، أو المناخ الفكري بشكل عام، بل قد تضيق دلالة المصطلح لتنحصر في الوضع العائلي للأديب، وقد تتسع هونا لتلمح صلة هذا الوضع العائلي بالوضع الطبقي العام، وقد تعني البيئة كل هذه الأشياء مجتمعة).

(٥٧) تجديد ذكرى أبى العلاء، ص٢٠.

(٥٨) المرآيا المتجاورة، ص٦٩- ٧٠.

وقد تحدث طه حسين عن بيئة أبى العلاء، ليرى تأثيرها في تكوين مزاجه، معتمدا في ذلك على مصادر عدة: المستشرق الفرنسي سلمون، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، وقد وضعها ابن بطوطة، وخلاصة ما وصفت به انها كانت مدينة كبيرة في عصرها القديم، و الآن قرية في منخفض لسهل واسع، أهلها يستقون من الآبار ويكثر فيها التين والزيتون وموقف أبى العلاء منها موقف التشاؤم، وقد وصف بعضهم أهلها بالبخل(٥٩).

ويصف لنا إقامة أبى العلاء في بغداد وحصوله فيها على العلم (و أقام في بغداد عاما ونصف عام نعرف من أمرها ما كان يجب ان يعرف، وبلا من أهلها ما كان يجب ان يبلو، وحصل من علمها ما كان يريد ان يحصل)(٦٠).فتأثير بغداد كان واضحا في عزلة أبى العلاء والحياة الفريدة التي عاشها (على ان أبا العلاء لم يعد من بغداد بهذا العزم المصمم أثناء العزلة، والتي حالت بينه وبين الزواج والنسل، وحرمت عليه اكثر اللذات أو قل كل اللذات)(٦١)، ويعلق على هذه الأمور ليثبت الجبرية، ففلسفة أبى العلاء المستمدة من بيئته تركت آثارها في سلوكه الذي سلكه، فهي نتيجة عملية في السيرة لهذا النحو من التفكير الذي دفع الرجل إليه)(٦٢).

ورغم ان أبا العلا ء قد اعتزل الناس، وفرض ما فرض على نفسه من طبيعة خاصة لحياته، فلم يستطيع ان يبتعد عن تأثير المجتمع، ولم تستطيع منه فكاكا (وهو يحب العزلة ولكنها في أثنائها متصل النفس بالناس لا يستطيع ان يقطع

(٥٩) انظر تجديد ذكرى أبى العلاء، ص١١١.

(٦٠) مع أبى العلاء في سجنه، ص٥٧.

(٦١) المصدر نفسه، ص٨٢.

(٦٢) المصدر نفسه، ص١٣١.

بينها وبينهم الأسباب)[٦٣] والقارئ للزوميات كما يقول طه حسين يجد ان أبا العلاء لم ينقطع قط عن الناس انقطاعا تاما، و إنما عاش معهم وتأثر بما تأثروا به)[٦٤].

ومن خلال دفاع طه حسين عن شك أبى العلاء المعري لم يجد تفسيرا إلا معطيات البيئة و أثرها الواضح فيه فيرى انه (قد كان مضطرا إلى ان يعيش في بيئته التي عاش فيها والى ان يشارك هذه البيئة فيما كانت دفعت إليه من ألوان الجدل في الدين والفلسفة)[٦٥].

وفي معرض مناقشته لوصف أهل المعرة بالبخل يبين لنا اثر البيئة وتوالي وتغير ضروب الحكم يقول: (على ان المصائب التي اختلفت على أهل المعرة لما كان من اختلاف الحمدانية والعبيدية والمرداسية والروم على حلب وما يليها أيام أبى العلاء، حرية ان ترد الكريم بخيلا وتجعل السخي كزا شحيحا)[٦٦] والذي قاله عن تغير الطباع عند الناس وتأثرهم بالبيئة، ذكره أيضا في نفي صفة البخل عن أبى العلاء (و إنما كان ابعد الناس عن البخل والشح، فقد فاتته العزلة التي رغب فيها وحرص عليها، وفرضت عليه الحياة الاجتماعية أو فرض عليه لون من ألوانها فرضا)[٦٧].

ويشير إلى قوة تأثير الحياة الاجتماعية عندما يتحدث عن صمت الفلاسفة ومنهم أبو العلاء فيقول: (لأن قوة الرأي وقوة الحياة الاجتماعية اشد من إيثارهم لا

---

(٦٣) المصدر نفسه، ص١٤١.

(٦٤) المصدر نفسه، ص١٤١

(٦٥) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(٦٦) تجديد ذكرى أبى العلاء، ص١١١.

(٦٧) مع أبى العلاء في سجنه،ص٨٧.

نفسهم)[٦٨]. وفي معرض حديثه عن أسباب تشاؤم أبي العلاء، والتي هي مؤثرات انعكست في نفسه، وعكسها أدبه وكشف عنها، ومن هذه الأسباب يذكر البيئة (فهو قد ارتحل إلى حلب وإنطاكية وألم باللاذقية، ولعله ان يكون قد ألم بطرابلس)[٦٩].

وإذا انتقلنا إلى العنصر الثاني من عناصر المنهج وهو الزمن، وجدنا طه حسين يخصص عنوانا واضحا لدراسة عصر أبى العلاء، مبينا الهدف الذي يسعى إليه من وراء دراسته، وهو توضيح قضية أو استنباط حكم غامض (لنقضي حقه، ونفي بعهده، ولنستمد منه القوة والايد... نلم بعصر أبى العلاء لنستفيد لا لنفيد)[٧٠] ولن يدرس عصره إلا ليتثبت من حال الأمة الإسلامية، ومدى تأثيرها فيه، ويحدد النقاط الرئيسة مما يهمه في عصره فيقول: (فليس لنا بد من ان نصف في عصر أبي العلاء حاله الأدبية والفلسفية وحياته السياسية والاقتصادية ومزاجه الخلقي والاجتماعي، ليتأتي لنا ان نفهم أبا العلاء كأنه شيء متصل بعصره غير منفصل عنه)[٧١].

وتفسير الناقد للظواهر الأدبية والشخصيات المدروسة (يتطلب معرفة بالماضي السابق لهم، ومعرفة بالحاضر الذي يحوطهم، وتحسس للامال التي كانت تجول بالنفوس في أيامهم)[٧٢]. وقد اتبع الدكتور طه حسين في دراسة أبى العلاء خطة واضحة المعالم، حيث قسم حياته الخاصة إلى ثلاثة أطوار:

---

(٦٨) المصدر نفسه، ص١٤٠.

(٦٩) المصدر نفسه، ص٥٦.

(٧٠) تجديد ذكرى أبى العلاء، ص٣٧.

(٧١) المصدر نفسه، ص٣.

(٧٢) محمد مندور، في الأدب والنقد، ص٢٠-٢١.

الأول: ووصف فيه تربيته وتعليمه وسفره، وينتهي هذا الطور في سن العشرين من حياة أبى العلاء.

الثاني: ذكر حياته مع الشعر والأدب، ورفضه للتكسب بشعره، لأنه يعتبره مالا حراما وكذبا.

الأخير: حياة العزلة التي فرضها على نفسه، وإقبال الناس وتلاميذه عليه.

وتبرز الأهمية الكبيرة لهذه الأطوار عند الدكتور طه حسين في انه يدرس أدب أبى العلاء في ضوء من هذه الأطوار، فيصل إلى خصائصه استنتاجا من خصائص هذه الأطوار.

ففي الطور الأول أثرت في شخصية أبي العلاء مجموعة مؤثرات، تركت آثارها واضحة فيه. ذهاب بصره، وفقده أباه، رحيله إلى حلب و أخذه عن شيوخها، وتأثره بعلمهم و أدبهم، حنان أخواله عليه أثناء إقامته عندهم، ثم رحيله إلى إنطاكية واللاذقية، ولقاء النصارى، والاستماع إلى مقالات الفلاسفة)[٧٣].

وفي الطور الثاني علل طه حسين عدم تكسبه بالشعر بأمرين[٧٤]:

الأول: (بشاعة الكذب، وقبح اثره في نفس الكاذب ونفس المكذوب عليه).

الآخر: ان ما يفيده من التكسب في الشعر إنما هو مال حرام قد استحل ظلما، وربما كان صاحبه مضطرا إليه.

---

(٧٣) انظر تجديد ذكرى أبى العلاء، ص١٣٥

(٧٤) المصدر نفسه، ص١٣٧.

فهذان الأمران استكبر طه حسين ان يذكر انهما من اثر الدين، فحاول لن يعللهما بتأثير الجنس لا بتأثير الدين، يقول طه حسين (وآثر الفقر وضيق اليد على الثروة يراق في سبيلها ماء الوجه، ويحتمل في تحصيلها ذل السؤال هنا تظهر آثار ما ورث عن أسرته وقبيلته من خلق العزة)[٧٥] على الرغم من انه قد ذكر اثر الدين وأهميته (ولسنا نحتاج إلى ان نذكر الدين، فانه اظهر أثرا من ان نشير إليه)[٧٦].

والطور الثالث يتعلق بعزلة أبي العلاء والمؤثرات التي دفعته إلى هذا السلوك، (لقد بلوت أخلاقهم فلم الق الاشرا، واختبرت طباعهم فلم أجد إلا نكرا، فلتضربن بيني وبينه الحجب، ولتسدلن بيني وبينهم الأستار)[٧٧].

والحياة السياسية في العصر، وثقافة الناس بكافة ضروبها، تلعب دورها الفاعل إيجابا أو سلبا (وكذلك ظلم الحكومة وجورها، وجهل الأمة وجمودها، وشدة الآداب الموروثة وخشونتها، كل هذه أو نقائضها تعمل في تكوين الإنسان)[٧٨].

فقد كانت الأحداث السياسية وراء عزلة أبي العلاء (وكان يعلم انه إن عاد إلى المعرة دون أن يحتاط لنفسه ويعتصم بالعزلة التامة والحيدة المطلقة لم يأمن من أن تعبث به أحداث السياسة كما عبثت بغيره من العلماء)[٧٩].

---

(٧٥) المصدر نفسه، ص١٣٦.

(٧٦) المصدر نفسه، ص٢١.

(٧٧) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص١٧٠.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٧٩) مع أبي العلاء في سجنه، ص ٨٣.

ويرى طه حسين إن أبا العلاء اشتراكي، واشتراكيته (يستمدها من الحياة المادية لعصره، يستمدها من الثورات التي اضطرب بها النظام الاجتماعي والسياسي أيام العباسيين)[٨٠].

وفي تعليق طه حسين على بيتي المعري:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيب

لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسم الخبيث

يرى أن العصر الذي عاش فيه أبو العلاء عصر فلسفة، تركت آثارها في عقله وأدبه، فسجن النفس بالجسم هو سجن فلسفي (تخيله كما يتخيل الشعراء، واشتقه من حقائق الأشياء، كما يفعل الفلاسفة، وما اكثر ما يلتقي الشعراء والفلاسفة في موقف واحد يتفق فيه العقل والخيال جميعا)[٨١].

ولم يكن أبو العلاء من المتأثرين بالفلسفة فقط، بل كان للديانات دورها الفاعل في التأثير فيه (وما اكثر ما تأثر أبو العلاء بما كان يقرأ من الديانات، فمالت نفسه إلى الإيمان بالبعث! وما اكثر ما تأثر أبو العلاء بما كان يقرأ من كتب بعض الفلاسفة فمال إلى التصديق بخلود النفس)[٨٢].

والعنصر الثالث هو عنصر الجنس، ويرى أن الأعمال الأدبية والآثار الفلسفية هي نتيجة للامتزاج بين الأجناس المختلفة (لكل من الاتحاد والامتزاج الاجتماعيين آثار ظاهرة في ثمرات العقول والقرائح ونتائج الملكات الإنسانية

---

(٨٠) المصدر نفسه، ص ١٨٦.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٨٢) المصدر نفسه، ص ٣٥.

كافة)[٨٣]، وهذا العنصر في البحث كان من تأثير غربي (وهذا هو مذهب الباحثين من علماء الفرنج في هذه الأيام، فإنهم يعتقدون أن كل جنس من البشر نوع برأسه، لم يجمعه مع غيره من الأجناس أب وأم)[٨٤].

يرى طه حسين إن لفظة عرب بمعناها الخالص لم توجد بشكل قطعي إلا (في عصور خاصة وأماكن محدودة)[٨٥]، ولكنه لم يوضح هذه العصور وهذه الأماكن، ويتابع (بل ربما لم يصدق هذا اللفظ في معناه اللفظي بعد الجاهلية إلا صدرا قليلا من الإسلام)[٨٦] فإذا ما وصل إلى عصر أبي العلاء، حاول أن يعرف دلالة هذا اللفظ في بيئة الشام، فوجد أن هناك فرقا بينه وبين المعنى الوضعي فيقول: (فليس هذا الجيل الخالص الصريح من عدنان وقحطان هو الذي كان منتشرا في بلاد الشام في أثناء ذلك العصر بل قد امتزجت به أجيال أخرى، وسيطت بدمه دماء لم يكن يعهدها من قبل)[٨٧]. فطه حسين ينفي صفاء الدم العربي قبل الفتح الإسلامي ويرى أن هذا الدم قد خالطه دم من أجناس أخرى (من الآراميين والنبط والعبرانيين والروم)[٨٨] وبعد الفتح الإسلامي للشام (كانت المصاهرة والاسترقاق. فنشأ من الجيل العربي المخالط لهذه الأجيال المختلفة جيل جديد لم يكن الزمن ليعرفه من قبل)[٨٩].

---

(٨٣) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص ٤٢.

(٨٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

(٨٥) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٨٦) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٨٧) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٨٨) المصدر نفسه، ص٣٩.

(٨٩) المصدر نفسه، ص٣٩.

فهذا الاختلاط بين الجنس العربي والأجناس الأخرى نتج عنه ذرية مهجنة، أعجمية الأمهات وعربية الآباء واستمر هذا الاختلاط في القرن الثاني والثالث والرابع والخامس مع اختلاف الأطوار السياسية. ويرى طه حسين أن الأكثرية أعجمية والأقلية عربية، ولكن سيطرة العرب على أمور الحكم، وسعة انتشار نفوذ الدين الإسلامي، قد أديا إلى أن تفنى الأكثرية في الأقلية فتكون النتيجة أن اصبح (سكان المدن الشامية وقراها وضواحيها، متعربين وليس لهم من العربية في نفس الأمر الإشعاع قليل)[٩٠].

ويهدف طه حسين من وراء دراسة اختلاط الأجناس إلى الوصول إلى نتيجتين:

الأولى: (إن لفظ " العرب" بمعناه التاريخي واللغوي لا يصدق حقا على الأمم التي تسمت به بعد الإسلام لما كان من الاختلاط الجنسي)[٩١]، ويصل إلى اننا لا نستطيع أن نسمي تلك الأمة المختلطة أمة عربية، بل الأصح أن نسميها أمة الإسلام فيقول: (فلفظ " المسلمين" هو أحق الألفاظ أن يدل على هذه الأجيال المختلفة)[٩٢].

الثانية: (إن هذه الأجيال التي شهدها أبو العلاء هي التي كونت الحياة العقلية لهذا العصر[٩٣] فلا يجوز لامة أن تدعي أنها صاحبة هذا التقدم العقلي.

---

(٩٠) المصدر نفسه، ص٣٩.

(٩١) المصدر نفسه، ص٤٠.

(٩٢) المصدر نفسه، ص٤١

(٩٣) المصدر نفسه، ص٤١

وهاتان النتيجتان تنعكسان بدورهما على الشعر، فاثر الجنس واضح فيما يتعلق بما ينتج عنه من الظواهر الأدبية (فالفرق عظيم جدا بين الشعر العربي الخالص الصريح ذي المعدن النقي ... وبين شعر الرجل من هجناء الشام والعراق[٩٤]. ومن مبدأ إيمان طه حسين بعلم الكيمياء والاتصال بين العناصر وعلم الوراثة يتابع فيقول (فأما العربي الصريح فليس يمثل شعره إلا مزاجا صافيا ساذجا، و أما الهجين المقيم فيضيف شعره إلى مزاجه العربي مزاج أمه الأعجمية)[٩٥]. ونوضح ما قاله طه حسين على النحو التالي:

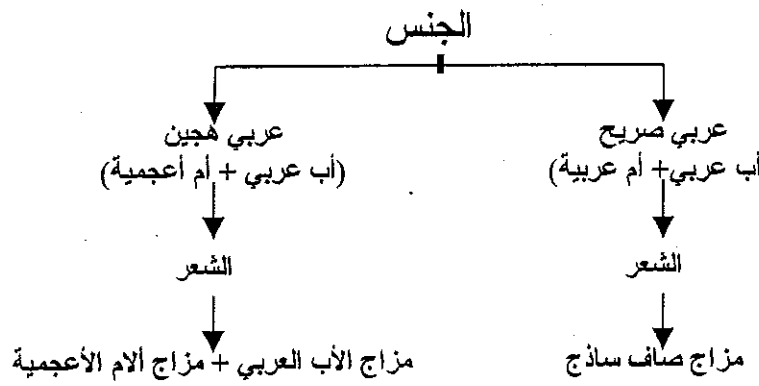

وينتقل طه حسين إلى البحث في اصل أبي العلاء، ينتسب أبو العلاء إلى قبيلة قضاعة يختلف في اصلها فقيل هي من عدنان وقيل يمانية، ويختلف في أهميتها قوية أو ضعيفة، ويبحث في أسرة أبي العلاء من جهة أبيه (كانت أسرة لها في المجد العلمي طارف وتليد)[٩٦]، وفي مجال الشعر فأكثر أسرته (قد قرضوا

(٩٤) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص٤٢.

(٩٥) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٩٦) المصدر نفسه، ص١١٨.

الشعر فأجادوا قرضه، فقد كان أبوه و أخوه شعراء)[٩٧] فأثر الوراثة واضح فيما يقوله، ولا ننكر دورها ولكن لنا معها وقفة.

ثم يبحث في اصل أسرة أمه فهي من " آل سبيكة " وهي أسرة مجهولة ولكن طه حسين يستنبط من شعر ونثر أبي العلاء ثلاث خصال، كثرة الرحلة، وكرم النفس وسخاؤها بالمال، وحب العلم والنبوغ فيه[٩٨]. ويصل إلى أن أبا العلاء لم يذكر أسرته لأبيه في اثاره، ولكنه اكثر من ذكر أسرته لأمه، ويعزو ذلك إلى كرم أخواله، وقلة مساعدة أسرة أبيه لفقر أو جفاء.

والباحث في آثار أبي العلاء الأدبية (كان خليقا ان يبحث عن حال الأمة العربية في عصره، لا عن حال الأمة الإسلامية)[٩٩] ومن أراد أن يبحث في آثاره العلمية والفلسفية فليبحث عن حياة الأمة الإسلامية، فقد كان (لها حظ غير قليل في تكوين الرجل ومزاجه، ولا سيما العلمي والفلسفي)[١٠٠].

فسر طه حسين شاعرية أبي العلاء بأثر الوراثة، حيث كان والده شاعرا، وأخواه شاعرين ولا ننكر اثر الوراثة في الجنس الإنساني، ولكن هل للوراثة دور في موهبة الشاعر؟ وهل يشترط إذا كان الوالد شاعرا أن يكون أبناؤه شعراء؟ اغلب الظن لا، لان هناك عوامل أخرى تفعل فعلها في إبراز هذه الموهبة – إن كانت موجودة – التجربة الشعرية للشاعر والثقافة اللازمة لتهذيب هذه الموهبة وتغذيتها والسير بها في الطريق الصحيح.

---

(٩٧) المصدر نفسه، ص١١٨.

(٩٨) انظر المصدر نفسه، ص١١٩.

(٩٩) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص٤٢.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص٤٢.

وأمر آخر التفت إليه فيما يخص الظاهرة الأدبية (الشعر) فالعربي الصريح النسب يتصف شعره بالصفاء والسذاجة، فهل يعني بالصفاء الوضوح والبعد عن التعقيد؟ وهل يعني بالسذاجة البساطة في التفكير، والاتصاف بعدم التفكير العميق القائم على استعمال العقل؟ جاء في لسان العرب[١٠١]. سذج، مجه ساذجة وساذجة غير بالغة، إنما يستعملها أهل الكلام فيما ليس ببرهان قاطع). ولقد طبق المستشرق رينان عنصر الجنس على دراساته (وزعم مثلا إن الأدب العربي يفتقد الخيال التركيبي البناء، ومن هنا تفقد القصيدة العربية عنصر الوحدة العضوية، كما ان هذا الأدب لم تظهر فيه الفنون التركيبية الكبيرة مثل فن المسرحية الشعرية وفن الملحمة. وزعم ان ذلك يرجع إلى طبيعة الجنس السامي الذي ينتمي إليه الجنس العربي)[١٠٢] فالذي يريد طه حسين الوصول إليه هو ان الشعر الساذج يعكس عقلية صاحبه وجنسه.

وفق طه حسين في الموازنة بين النظرية والتطبيق، وان لم يخل التطبيق من خلل، فعلى الرغم من أخذه بالأحوال السياسية والاجتماعية وبيان مدى تأثيرها في الأديب والأدب كعلة ومعلول وسبب ونتيجة، ألا إننا نراه يشك فيها، فكيف نصدق شيئا بني على أساس غير سليم، يغلب فيه الظن على اليقين، فهو يعترف (بان التاريخ الأدبي كالتاريخ السياسي يغلب فيه الظن ويكثر فيه الرجحان ويقل فيه اليقين)[١٠٣].

وفي ضوء الحتمية الجبرية التي رآها طه حسين في أن الأدب انعكاس

---

(١٠١) ابن منظور، مادة (س ذ ج).

(١٠٢)محمد مندور، الأدب وفنونه، ص١٤٠.

(١٠٣) مع أبي العلاء، ص٣٧.

لعناصر البيئة والزمان والجنس فكيف نفسر التقدم والازدهار الأدبي والعقلي عند أبي العلاء في ظل أوضاع سيئة على المستوى السياسي والاقتصادي (فليس لنا بد من أن نصف في عصر أبي العلاء حالته الأدبية والفلسفية، وحياته السياسية والاقتصادية، ومزاجه الخلقي والاجتماعي، ليتأتى لنا أن نفهم أبا العلاء كأنه شيء متصل بعصره غير منفصل عنه)[١٠٤].

وفي ضوء الحتمية أيضا كيف يسقط لون من الأدب وهو الخطابة بسبب (إن الشعب في أيام بني العباس لم يعرف الحرية ولم يتذوقها)[١٠٥] وتزدهر بقية الآداب (ولكن ذلك لا يدل على انحطاط الآداب في ذلك العصر)[١٠٦]؟

الجبر التاريخي

انطلق طه حسين من خطة منهجية نابعة من مبادئ واضحة. كان من أهم عناصرها و أبرزها انه يؤمن بالحتمية التاريخية والجبرية يقول (انا نرى الجبر في التاريخ، أي ان الحياة الاجتماعية إنما تأخذ أشكالها المختلفة، وتنزل منازلها المتباينة، بتأثير العلل والأسباب، التي لا يملكها الإنسان، ولا يستطيع لها دفعا ولا اكتسابا، ذلك رأي نراه)[١٠٧].

وعليه فان الإنسان (جزء من حركة التاريخ، وحركة التاريخ حركة جبرية

---

(١٠٤) تجديد أبي العلاء، ص٣٧.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص٩٧.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص٩٧.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص٢٤.

ليس للاختيار فيها مكان)[١٠٨]، فالإنسان هو المتأثر فهو (نتيجة لازمة وثمرة ناضجة لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه وتصوير نفسه، من غير ان يكون له عليها سيطرة أو سلطان)[١٠٩].

والظاهرة الأدبية ثمرة طبيعية لقوانين جبرية، وما هذه القوانين إلا القوة الاجتماعية التي تقيده، فاصبح العمل الأدبي أشبه ما يكون بالوثيقة التاريخية، ورد فعل جبري لا يستطيع الأديب رده. وبدلا من ان يتوجه طه حسين إلى النص توجه إلى ما حوله من المؤثرات.

إيجابيات وسلبيات المنهج

لا يخلو منهج من المناهج من إيجابيات وسلبيات، إيجابيات يحقق من خلالها الباحث بعض أغراضه التي سعى إليها، وسلبيات تمثل مناحي قصور لم تستطع عناصر المنهج ان تؤدي ما عليها تجاه الظاهرة المدروسة، عند ذلك يقع الخلل. ولكن ما يحمد لطه حسين انه أول باحث – في حدود علمي – يستخدم هذا المنهج ضمن خطة مرسومة، ولقد بين ذلك في مقدمة (تجديد ذكرى أبي العلاء) فقال: (اني لا اعرف كتابا في الآداب العربية قد وضعه صاحبه على قاعدة معروفة وخطة مرسومة من القواعد والخطط التي يتخذها علماء أوربا أساسا لما يكتبون في تاريخ الآداب)[١١٠]. وقد كانت خطته واضحة وتشدد في تطبيقها (حتى كاد الكتاب

(١٠٨) جابر عصفور، المرايا المتجاورة، ص٧٠.

(١٠٩) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص٢٠.

(١١٠) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص١٦.

يكون نوعا من المنطق أو هو بالفعل منطق تاريخي أدبي)[١١١] ويعترف ان هناك ألوانا من القصور في الكتاب (انا اعلم بها من غيري، ولكني قد اضطررت إلى هذا القصور اضطرارا حين لم أجد الآن سبيلا إلى الكمال المطلق)[١١٢].

وقد أشار الدكتور يوسف بكار في غير محاضرة إلى ان الناقد يرسم خطته المنهجية ويحدد عناصرها على المستوى النظري، ولكنه حين يأتي إلى التطبيق تفلت منه بعض الخيوط ويجد نفسه قد اصبح خارج خطته، وهذا يدل دلالة واضحة على ان أي منهج من المناهج مهما ضبطت قواعده بصرامة، فلابد ان يشتمل على إيجابيات وسلبيات وهذه السلبيات هي التي تؤدي إلى إفلات بعض الخيوط.

وفي وقت سادت فيه مناهج بحث تقليدية تأثرية، كانت دراسة طه حسن في (تجديد ذكرى أبي العلاء " دراسة تاريخية نقدية تحليلية جريئة كل الجراءة على قول ما يؤمن به الباحث في حرية وصراحة "[١١٣]. وقد خدم هذا المنهج الأدب العربي، وفتح طريقا أمام الباحثين، فقد أسهمت دراسة طه حسين في تطوير الدراسات الأدبية من ناحية جعلها الأديب محورا للدراسة الأدبية الشاملة من واقع بيئته)[١١٤]، حيث كان تركيزه على المؤثرات المحيطة بالأديب وبيان مدى انعكاسها فيه، وفيما يصدر عنه من آثار و آراء.

---

(١١١) المصدر نفسه، ص١٦.

(١١٢) المصدر نفسه، ص١٧.

(١١٣) شوقي ضيف، طه حسين مائة عام من النهوض العربي، مقالة بعنوان (أوليات الأدب العربي) ص١٠٦.

(١١٤) يوسف نور عوض، الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين، ص١٣٨-١٣٩.

وبهذا المنهج فقد ألغى طه حسين التجربة الذاتية للأديب، حيث رأى ان الأثر الفني لا علاقة له بنفس المبدع وان الصفات الفردية لا علاقة لها بالإبداع، ونراه يصف بالسذاجة من يعتقدون ذلك فيقول (فان أصحاب السذاجة يرون ان الأثر الفني إنما هو نتيجة لما يكون من لقاء بين ذكاء بارع وموضوع من الموضوعات)[١١٥] ويقول في موضع آخر (ان مذهبنا في التاريخ يمنعنا من ذلك ويحرمه علينا فانا لا نؤمن بانفراد الأشخاص ولا باستقلالهم في الأعمال)[١١٦]. وعلى ذلك فانه لا ينشغل بالفرد وخصائصه ولا يهتم بالأمور المتعلقة بذاته (على ان ما يعنيني من حياة رجل من الناس شيء آخر غير هذه الأعراض التي تطرأ له، وليس ينفعني مولده ولا حبه ولا شقاؤه، ولا كل هذه الأشياء التي يمكن ان تلاحظ في حياة الناس)[١١٧].

ولا شك ان طه حسين قد ترك أثره في غير واحد من النقاد، فقد صرفهم (عن الاهتمام بالمقاييس الفنية الخالصة والاهتمام بالقيم التي تكمن خارج العمل الأدبي)[١١٨] وعلى هذا الأساس من الاهتمام بالمؤثرات الخارجية عن النص، فان تطبيق المنهج قد جعل من العمل الأدبي أشبه ما يكون بالوثائق التاريخية التي تنفع دارس التاريخ اكثر من دارس الأدب.

وقد رأى غير واحد من النقاد ان طه حسين كان يحكم جانب الذوق، وهذا أمر طبيعي (في ظل تحكيم معيار نقدي دخيل على النص، يصبح من المألف القول

---

(١١٥) مع أبي العلاء في سجنه، ص٧.

(١١٦) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص٢٥.

(١١٧) مع أبي العلاء في سجنه، ص٩.

(١١٨) يوسف نور عوض، الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين، ص١٣٥.

بالتكلف والطبع فيصبح النص متكلفا مرة ومطبوعا مرة أخرى تبعا لقدرته على استثارة مشاعر الناقد وعواطفه)[١١٩] ويقول الدكتور محمد يوسف نجم[١٢٠]: (فنقده نقد تأثري، نقد أديب متذوق لا عالم يعتد بالقواعد والأصول.

وفي الجبرية التاريخية فان المنهج يلغي أي مسؤولية للفرد، ويجعل دوره سلبيا في مواجهة الأحداث المحيطة به (فهو ينكر على الإنسان قدرته على تغيير الواقع وتحريك التاريخ، وهو الذي يحاول ان يجعله ضحية البيئة والمجتمع وبذلك ينفي عنه المسؤولية الفردية)[١٢١].

وبعد:

أرجو ان أكون قد وفقت في إلقاء الضوء على منهج الدكتور طه حسين في دراسته لأبى العلاء، معتذرا عن أي تقصير ورد في هذا البحث.

فالكمال لله وحده. والحمد لله رب العالمين.

---

(١١٩) احمد يوسف، طه حسين مائة عام من النهوض العربي، مقالة بعنوان (نتائج منهج طه حسين)،ص٣٢٧.

(١٢٠) نظرية النقد الفنون والمذاهب الأدبية، ص١٩.

(١٢١) أنور الجندي، محاكمة فكر طه حسين، ص٣٩.